# الفصل الثاني

## مكانة المرأة
## في جاهلية شبه جزيرة العرب

obeikandl.com

obeikandl.com

# مكانة المرأة
# في جاهلية شبه جزيرة العرب

ولقد سبق وأن شرحنا، من خلال نصوص تاريخ الحضارات، مكانة المرأة في معظم أنحاء العالم، قبل الإسلام، ورأينا كيف امتهنت كرامة المرأة لدى كثير من شعوب الأرض، وكيف ضاعت كرامتها لدى حكام كثير من تلك الشعوب، بل ولدى كثير من العامة، والأدهى والأمر أنها حتى ضاعت لدى طوائف عدة ممن أطلقوا على أنفسهم «رجال الدين» . . !!

ولكنا نرى أن تركيز البحث على مكانة المرأة في شبه جزيرة العرب يكتسب أهمية خاصة، لأنه من هذه البلاد انطلقت دعوة الإسلام، دين الحق الذي أنصف المرأة كما لم تنصف من قبل في التاريخ، وكما لم يحدث حتى بعد ذلك في أرقى عصور المدنية، دون مبالغة أو تهويل.

شبه جزيرة العرب هي المكان المتوسط بين حضارات العالم القديم في كل من آسيا (حضارة الصين واليابان والهند وبلاد فارس من ناحية)، وحضارات المصريين القدماء واليونان والرومان من ناحية أخرى، ولحكمة يعلمها الله، سبحانه وتعالى، اختار هذا المكان الوسط، واختار سكان شبه الجزيرة العربية ليبعث فيهم نبي الرحمة، صلى الله عليه وسلم، ولينزل عليه قرآنه العظيم، بلسان قومه، اللسان العربي المبين: ﴿ **إنا جلناه قرآناً عربياً، لعلكم تعقلون** ﴾. (الزخرف/ ٣). ﴿**وكذلك أنزلناه قرآناً عربياً** ﴾. (طه/ ١١٣).

ولقد جرت عادة معظم الباحثين عند التأريخ لفترة الجاهلية، في شبه الجزيرة العربية، أن يصلوا إلى تعميم شبه مؤكد مؤداه أن مكانة المرأة في الجاهلية كانت

متدنيـة إلى حد بعيـد، وأنها لم يكن يؤبـه لها أو لرأيها، بينما ظهـرت طائفـة أخرى من العلماء والباحثين حاولت أن تثبت أن هـذا الأمر لم يكن هكذا على إطلاقـه، وحاولوا أن يبرهنوا مـن خلال عـدد من الكتابـات العلمية والبحـوث المتعمقة على أن مكـانة المرأة في شبه الجزيرة العربية لم تكـن بهذا السوء، ولا بهذا الانحطاط الذي وقر في كثير من الأذهان، وأن قضيـة وأد البنات التي عبرت عنها آيـات من القرآن الكـريم كانت هناك حقـاً ولكنها لم تكن شائعة في جميع أنحـاء شبه جزيرة العـرب، وإنما هي كانت قـاصرة على قبـائل بعينهـا، ولم تكن قـريش من بين هـذه القبـائل التي اعتـادت وأد البنات، وخـلال سطور هـذا الفصل سوف نحاول، إن شـاء الله، أن نعـرض لرأي كل طرف، وأن نفنده وندقق فيه، وهدفنـا هو محاولة الوقوقف على أدلة الرأيين، دون تأييد هذا، أو معارضة ذاك، ونرجو أن تكون الموضوعية والعلمية رائدنا - بإذن الله - في معالجة هذا الجانب، وكل جانب نكتبه.. بإذنه تعالى.

■ **أولاً:**

## كتابات الذين لم يعمموا سوء أحوال المرأة في العالم على شبه جزيرة العرب:

فكما سبق مررنا من خـلال كتابات: " ول. ديورانت " في قصـة الحضارة، ولمسنا سوء أوضـاع المرأة في كثير من حضارات العالم البائدة، عبر فترات التـاريخ الماضية، حيث دأب عدد من الكتاب والمفكرين في منطقتنـا العربية على رسم خطوط لأوضاع المرأة في الجاهلية، قبل الإسـلام، تبين أن ما حـدث للمرأة في الحضـارات المختلفة، السابقة على الإسلام، هو الذي كان يحدث في شبـه جزيرة العرب، ولعلنا نمر سريعاً على هـذه الآراء، وسـوف نتبع في هـذا الجانب "المنهج المقـارن" بين الحضـارات، بمعنى أننا، مابين حين وآخر، سوف نأخذ مـا كتب عن المرأة ومكانتها في شبه جزيرة العرب، ونـرتد بـه إلى الوراء، عبر سحب التـاريخ القديـم، لنقارن بين مكـانة المرأة

هناك . . ومكانتها هنا، والله المعين .

يقول الأفغاني: درج الجاهليون في علاقتهم بالمرأة على أحوال يصعب معها الحكم إطلاقاً عاماً، فهم يحترمونها في نواحٍ، ويمتهنونها في أخرى، والحق يقتضينا أن تكون نظرتنا عامة شاملة، فلا يصح أن نحكم على حال المرأة - كما فعل فريق من الباحثين - ببعض نساء الأشراف المحترمات كمادية امرأة حاتم (الطائي)، وهند زوج أبي سفيان، وخديجة بنت خويلد مثلاً، كما لا يصح أن نشايع فريقاً آخر كان إلى الجور المحض حين اتخذ بعض نساء البداة والعوام الخشنين القساة مثلاً لنساء الأمة كلها . (١)

ونحن مع تقريرنا أن المرأة العربية، في القرنين السادس والسابع لميلاد المسيح كانت أهنأ حالاً، وأقرب إلى الاحترام، في الجملة من المرأة في بقية الأمم المتحضرة منها كالرومان، مع هذا لا نجد محيصاً عن ذكر الحيف الذي عانته . . .

فبينما كان للروماني وغيره، قبل النصرانية، الحق في أي يقتل زوجته، كما له الحق في قتل عبيده، وبينما نرى الأمم الأوروبية، حتى بعد النصرانية تدأب على ازدراء المرأة والانحطاط بها عن مستوى البشر، واعتبارها مصدر الشرور والآثام، وأنها مخلوق لا يستحق غير اللعنة . . . إلى أمور أخرى يعرف تفصيلها كل من ألم بالتاريخ العام . . . ، بينا كان ذلك كله يحدث رأينا العربي قد سما بفطرته في بعض الحالات، فمجد المرأة في جاهليته، وناجاها في سره وعلنه، ونظر إليها فوضعها في منزلة تسامى منزلة الرجل في كثير من الأحيان . (٢)

ويتحدث الأفغاني عن أمر يعتقد هو أنه في طبيعة الناس كافة، ألا وهو تفضيل

---

(١) سعيد الأفغاني: مرجع سابق، ص١٢ .

(٢) المرجع السابق، ص١٤ .

أن يولـد لهم الذكـور دون الإناث " تولـد الأنثى فيشعر والداهـا بخيبة، فإن تظـاهرا بالفرح كـان فرحاً واجماً (!!) يختلف عن الأفراح التي تقام لولادة الـذكور، وهذا شيء في طبيعـة الناس كـافـة (؟؟) باديهم وحـاضرهم، يتمنى كل والـدين على الأرض أن يكون مولودهما ذكراً فلا سبيل إلى إفراد العرب بالإنكار إلا فيما جرت عليه عادة بعض القبائل من وأد قبيح للبنات. (١)

ثم ينتقل الكـاتب نقلـة أخـرى في حيـاة الأنثى، حيث يبين لنـا أنها إذا تـزوجت ورزقت بالذرية صارت لها المكانة المرمـوقة بين نساء قبيلتها، وهو لم يقل لنا الفرق بين أن تكـون قـد رزقت ذريـة من البنين أو البنـات، ويعـرض لنـا كيف كـان العـربي (الجاهل) شديـد الاحترام لأمه، كثير الحدب عليه وعلى صيـانتها، بالإضافـة إلى أنه كان يطيب لـه أن يمتدح إلى النساء ببطـولته وأمجاده، فهـو كلما استبسل في قتال، أو سابق إلى مكـرمة فجاشت نفسه بشعر، بـدأ بالمرأة فأشاد بها، ثم احتكم إليهـا فذكر مفاخره وأفعالـه، وشواهد ذلك كثيرة مستفيضة، لقد كان فرسانهم ينـزلون إلى حومة الوغى وألسنتهم رطبـة بذكـر صواحبهم أو أخواتهم أو أمهـاتهم، يرتجزون متحمسين طالبين إلى هؤلاء النسوة أن يشهـدن شجاعتهم واقتحامهم الغمرات في سبيل مجدهم وفخرهم. (٢)

ويخلص المؤلف إلى أن شيوع الغـزل في كل قصيدة جاهليـة، مهما كان موضـوعها والباعث على قـولها، لخليق أن نقف أمامـه وقفة طـويلة.. ونتأملـه ملاحظين، فما كان هذا ليكون لولا أن المرأة كانت تشغل في المجتمع العربي منزلة هامة يتجمع حولها كثير من الشؤون، وهو في الوقت نفسه دليل على ما تحتله من عقل العربي وقلبه. (٣)

---

(١) المرجع السابق، ص١٤.

(٢) المرجع السابق، ص ص ١٥ ـ ١٦.

(٣) المرجع السابق، ص١٨.

والعرف العربي لا يجيز تعريض النساء للمخاوف والتهديد، ويفرض حمايتهن، وفداءهن بالروح، ويحتقر كل من تهاون بصيانتهن، أو تردد في الموت دونهن، أما من قتل امرأة، أو حمل عليها، أو تمدح بغلبته عليها، فيكاد لا يعرفه المجتمع العربي البتة.(١)

ويمتدح الكاتب المرأة العربية في الجاهلية حيث هي: " تتميز بخلال ثلاث: العفة، والفصاحة، وحسن التربية لبنيها. وإن الرجولة المكافحة في بلاد العرب مدينة بالشيء الكثير للمرأة، إن لم تكن مدينة لها وحدها بكل صفاتها من مروءة وشجاعة وكرم ونجدة. وقد أصبح اختيار الأمهات أول ما يفكر فيه الجاهلي إذا ابتغى النجابة لأبنائه، حتى صح أن يكون رأس ما يمن به الرجل على أبنائه إذا كبروا هو حسن اختياره لأمهم.(٢)

ويعقد " البار " مقارنات هامة بين وضع المرأة عند عرب الجاهلية، وبين وضعها في الحضارات الأخرى السابقة على الإسلام، بل إنه يتحمس للجاهلية الأولى ضد جاهلية العصر الحديث في المجتمعات الغربية، حتى لينص على أنه: " لم تصل بعد حضارة الغرب المنكودة في جاهليتها إلى ما وصلت إليه جاهلية العرب قبل إسلامهم. ولو وصلوا - في رأيه - إلى ما قد وصل إليه العرب في جاهليتهم الأولى لأقاموا الدنيا ولم يقعدوها على هذا التقدم العظيم.. وهذا الإنصاف والتحرر للمرأة.. ولاعتبر ذلك عيداً من الأعياد تحتفل به الأمم المتحدة. ولأسموه عيد المرأة.... وأضافوه إلى بقية أعيادهم التي يحتفلون بها في كل عام،(٣) ولكن لماذا كل هذا.. ؟؟ لعلنا نقرأ مبرراته..

---

(١) المرجع السابق، ص ص ١٨ ـ ١٩.

(٢) المرجع السابق، ص١٩.

(٣) محمد علي البار: عمل المرأة في الميزان، الدار السعودية للنشر والتوزيع، الرياض، ص٢٢.

كان وضع المرأة لدى أغلب الأمم، قبل الإسلام، وضعاً مهيناً قاسياً مذلاً. . فلم يكونوا يعتبرونها إنساناً ذا روح، بل كانوا يعتقدون أنها من روح وضيعة. . وهي عندهم أصل الشرور ومنبع الآثام. .

ولم يكن للمرأة عند الهنود في شريعة "مانو" أي حق من الحقوق، وهي خادمة فقط لزوجها أو أبيها. . ولا تملك الأهلية للتصرف في مالها، بل لم يكن لها حق الملكية ذاته، إذ أن كل ما تملكه يعود إلى زوجها، أو أبيها، أو إلى ولدها. . وكانت إذا مات زوجها أحرقوها حية، ودفنوها معه (وهذا بطبيعة الحال لم يكن يحدث عند عرب الجاهلية) وبقيت هذه الجريمة النكراء حتى بعد أن دخل الاستعمار البريطاني إلى الهند وفرض قانوناً يمنع إحراق المرأة حية. . ومع ذلك - يقول البار - فقد استمر إحراق الزوجة من حين لآخر حتى في هذا القرن العشرين[1]. . !!

وفي اليهودية كانوا يضعون المرأة في مرتبة الخادم، ولأبيها الحق في بيعها وهي قاصرة. . ولا ترث شيئاً إلا إذا لم يكن لأبيها ذرية من الذكور. . وفي العهد القديم (التوراة المحرفة) أن المرأة لا ترث مادام في الأسرة رجال، بل إنها هي نفسها تورث كمتاع إذا مات زوجها، ويرثها أقرب ولي لزوجها. [2]

وكانت المرأة عند اليهود والنصارى تعتبر أصل الشرور، ومنبع الخطيئة، ومصدر الآثام. . وهي نجسة، وخاصة في أيام حيضها، ومن لامسها يكون نجساً سبعة أيام، وهي عندهم سبب خروج آدم من الجنة، فهي التي أغرته بأكل التفاحة (الشجرة المحرمة). وهي سبب اللعنة الأبوية التي نزلت بآدم وذريته. . فيولد كل ذريتها ملطخين بعار الخطيئة. . ولا يخلصهم منها إلا إذا آمنت بعيسى المسيح المخلص والإله. (أو ابن الله) تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً. [3]

---

(١) المرجع السابق، ص١٣.

(٢) المرجع السابق، ص١٤.

(٣) المرجع السابق، ص١٣.

وانتشر في النصرانية الاعتقاد بأن المرأة ليس لها روح، وفي عام ٥٨٦م. أي قبل ظهور الإسلام، قرر "مجمع نيكون" بأن المرأة جسد به روح دنيئة.. وأنها خالية من الروح الناجية، واستثنوا من ذلك مريم العذراء فقط، لأنها أم المسيح عليه السلام.

وصرح "بولس" بأن المرأة منبع الخطيئة، وأصل كل الشرور، ووراء كل إثم، ومصدر كل قبيح.. وكان القديس "بونافنتور" يقول لتلاميذه: "إذا رأيتم امرأة فلا تحسبوا أنكم رأيتم كائناً بشرياً، بل ولا كائناً وحشياً. إنما الذي ترون هو الشيطان بذاته!!.(١)

ويؤكد "الحصين" على أن عادة وأد البنات لم تكن متبعة عند جميع العرب في الجاهلية، وإنما كانت مقصورة على بعض القبائل العربية فقط، وقد حددها في قبائل: ربيعة، وكندة، وطيء، وتميم "وقيل إن السبب أنهم كانوا يخشون أن يجلبن العار إذا سبين في الحرب أو غير الحرب.

وإن كان الكاتب نفسه يقول في نفس الصفحة "وكان كثير منهم يئدون بناتهم، وتسود وجوههم إذا بشروا بالبنت، وإن أبقوها أبقوها مهانة، لا يورثونها، ولا يعتنون بها، ويفضلون الأولاد الذكور عليها، وكان زيد بن عمر بن نفيل، وصعصعة جد الفرزدق، الشاعر المعروف، أول من فكر في إحياء الموءودة، حتى قيل أنهما أحييا ثلاثمائة(٢) (كان ينبغي أن يقول الكاتب (أول من فكر في منع وأد البنات، وأنهما منعا وأد ثلاثمائة) لأنه ماكان يمكن إحياؤهن، لو أنهن كن قد وئدن بالفعل.. !!

---

(١) المرجع السابق، ص ص ١٧ ـ ١٨.

(٢) أحمد عبد العزيز الحصين: المرأة المسلمة أمام التحديات، دار البخاري للنشر والتوزيع، القصيم ـ بريدة، (بدون تاريخ)، ص١٣.

ويتبنى "شلبي" رأياً متوازناً حين يقول: "تدلنا الروايات التاريخية على أن المرأة في كثير من القبائل بجزيرة العرب كانت ممتهنة، ثم يتدارك فوراً قائلاً: إن هذا الامتهان لم يكن شائعاً في جميع القبائل، وإن المرأة في بعض قبائل العرب كانت تحتل مكانة مرموقة في بعض النواحي". (١)

أما "عبد الباقي" فيعطي صورة وردية لحياة المرأة في الجاهلية يقتبسها من ظروف وأحوال بعض النساء اللاتي وصلن إلى مكانة رفيعة في مجتمعاتهن، والحكم على أحوال الشعوب أو العامة لا ينبغي أن يكتب عنه من خلال قصور بعض الملكات أو من خلال ترف الحياة ونعيمها الذي أغرق فيه بعضهن، يقول: "لقد كانت المرأة العربية قبل ظهور الإسلام تعيش حياة راقية، وتمارس حقوقها كاملة (!) وأبرز دليل على ذلك أن الكتب المقدسة تصور لنا نساء ذلك العصر (نلاحظ هنا التعميم على نساء العصر. كلهن!!)، ومن أمثلتهن بلقيس ملكة سبأ (اليمن)، تلك التي وصفها القرآن الكريم بقوله ﴿ **وأوتيت من كل شيء ولها عرش عظيم** ﴾، وكانت تلك الملكة تحكم مملكتها حكماً يقوم على الشورى، أي حكماً ديموقراطياً بالمفاهيم الحديثة، على حين أنها لم تكن في حاجة إلى الشورى في الحكم، وقد أعطاها مواطنوها ثقتهم المطلقة، لما كانت تتحلى به من الحكمة والعدل والذكاء.. تلك الحكمة التي تجلت عندما جمعت شعبها لتستفتيه رأيه، وتطلب مشورته في ردها على رسالة سليمان، عليه السلام، التي بعثها إليها يدعوها: ﴿**ألا تعلو على وأتوني مسلمين**﴾. (٢)

---

(١) أحمد شلبي: المجتمع الإسلامي.. أسس تكوينه - أسباب ضعفه ـ وسائل نهضته، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ط٤، ١٩٧٤م، ص٤٤.

(٢) زيدان عبد الباقي: المرأة بين الدين والمجتمع، سلسلة الثقافة الاجتماعية الدينية للشباب (الكتاب الثاني)، بدون ناشر، القاهرة، ١٣٩٧هـ ـ ١٩٧٧م، ص ص ٩٧ ـ ٩٨.

ومن هذا المثال نرى سيدة عربية تصل إلى منصب رئيس الدولة، بالرغم من الزعم القائل بأن تقاليد العرب كانت تقف بين المرأة وسياسة بلادها، فقد كان رجالات العرب هم الذين رفعوها، في اعتزاز، إلى مقعد الحكم، لارتفاع مستواهم الفكري والحضري يومئذ. (١)

ويدعم الكاتب السابق وجهة نظره بمثال آخر، مثل المثال السابق حين يحدثنا عن "زينب" ملكة تدمر التي نهضت بأعباء بلدها، وأدارت سياسة وطنها، وقادت حروبه، ونجحت في توسيع قاعدته، حتى امتد إلى مابين مجاهل إفريقيا وسهول آسيا الصغرى، بحيث تحولت دولتها إلى امبراطورية مترامية الأطراف، لاسيما وأنها بالإضافة إلى ذلك، كانت تمتاز بشخصية قوية أهلتها للزعامة بين قومها، وانتزاع التقدير من خصومها.

والملكة زينب هذه، ولازال الحديث لعبد الباقي، كان يطلق عليها "الزباء" لغزارة شعر حاجبيها وسعة عينيها، وكانت هذه السمات من علامات الجمال -يومئذ- عند العرب، وكانت الزباء أديبة ذات إباء وشمم، فهي صاحبة القول المأثور "بيدي.. لا بيد عمرو" عندما أيقنت من تآمر عمرو بن عدي على قتلها في أخريات أيامها، انتقاماً منها على قيامها بأسر خاله ملك الحيرة في إحدى المواقع العربية. (٢)

هذا وتمتلئ (!!) كتب التاريخ بأشعار ونثر المرأة العربية.. ذلك الشعر وذلك النثر الذي يرتفع إلى مستوى الآداب العالمية (!!!) كما أنها كانت تعمل بالتجارة، غير أنه بالرغم من اقتحامها لميادين السياسة والأدب وارتيادها الأسواق، والخروج إلى

---

(١) المرجع السابق، ص٩٨.

(٢) المرجع السابق، ص ص ٩٨ ـ ٩٩.

الحروب، واعتلاء العروش، فإن أحداً من قومها لم ينكر قيامها بواجباتها كزوجة وكأم، ذلك أنه كان ينسب الفضل، في كثير من الأحيان، للمرأة في التنشئة الاجتماعية لبعض الأبطال وتوجيههم. (١)

ورغم ما في الكلام السابق من بعض صيغ المبالغة، ورغم التعميم الذي قد يفقده بعض مصداقيته، أو موضوعيته، إلا أن جزءاً منه حقيقي في تاريخ المنطقة العربية، وفي تعامل أهلها مع المرأة، وهو أمر لم يسبق أن مر علينا في حضارات الأمم والشعوب التي عاشت قبل الإسلام، والتي عاصرت المنطقة العربية في حالة جهالتها التي كانت عليها قبل الإسلام، وذلك شيء طيب يحسب للمنطقة وأهلها، ويبين أنه كان بها إرهاصات تنبىء عن أهلية سكان شبه الجزيرة العربية لحمل أمانة الرسالة، تحت قيادة محمد بن عبد الله، عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم.

ويتبنى الشيخ "السباعي" نفس الموقف المتوازن الذي تبناه "شلبي"، وأشرنا إليه من قبل، فلم تكن صورة المرأة العربية في الجاهلية سيئة على إطلاقها، حقيقة كانت في مجملها مهضومة في كثير من حقوقها، "فليس لها حق الإرث، وليس لها على زوجها أي حق، وليس للطلاق عدد محدود، ولا لتعدد الزوجات حد معين، ولم يكن عندهم - أي العرب - نظام يمنع تمكين الزوج من النكاية بها، كما لم يكن لها حق في اختيار زوجها. (٢)

كانت هذه هي الصورة العامة لوضع ولمكانة المرأة عند عرب الجاهلية، ولكن كانت هناك استثناءات، فلقد "كان رؤساء العرب وأشرافهم، فحسب، يستشيرون بناتهم في أمر الزواج، كما نستنتج ذلك من بعض القصص التاريخية. (٣)

---

(١) المرجع السابق، ص٩٩.

(٢) مصطفى السباعي: المرأة بين الفقه والقانون، المكتب الإسلامي، بيروت ـ دمشق، ط٥، (بدون تاريخ)، ص٢٢.

(٣) المرجع السابق.

وهذا هو الذي قلنا به في ردنا على الدكتور زيدان عبد الباقي والذي صور لنا حياة المرأة في الجاهلية تصويراً قد يجافي الحقيقة بعض الشيء، لأنه أراد أن يعمم على نساء مجتمع الجزيرة العربية ما كان سائداً في بعض القصور، في بعض فترات التاريخ المحدودة.

أما الجانب الطيب الآخر الذي يلمحه "الشيخ السباعي" في حياة المرأة في العصر الجاهلي، والذي لم يكن موجوداً في الحضارات السابقة على الإسلام، أو التي عاصرته فهو حماية الرجل لها، والدفاع عن شرفها، والثأر لامتهان كرامتها[1]... وهذا حق لا مراء فيه.

ويشترك كاتب آخر مع الكاتب السابق في رأيه، بل ويكاد يتطابق معه في كل ما ذهب إليه، كتب نواب الدين: " لم تكن المرأة العربية بأحسن حظاً من أخواتها الأخريات - يقصد في الحضارات الأخرى خارج شبه جزيرة العرب - وإن كانت تمتاز عنهن بحماية رجلها لها، واستماتته في سبيل صيانة عرضها، بدافع النخوة والشهامة.

لكن رغم ذلك كانت (غنيمة) مطلوبة للخدمة والاستمتاع، نتيجة لطبيعة العرب الذين كانت الحروب شغلهم الشاغل. وحسبي في هذا المجال أن أورد قول الله عز وجل: ﴿ **وإذا بشر أحدهم بالأنثى ظل وجهه مسوداً وهو كظيم، يتوارى من القوم من سوء ما بشر به، أيمسكه على هون، أم يدسه في التراب، ألا ساء ما يحكمون** ﴾. (النحل/ ٥٨-٥٩).

على أن الوأد لم يظهر إلا في قبائل معدودة، ويروى العلماء أن مضر وخزاعة كانوا يدفنون البنات أحياء، وأشدهم في هذا تميم، زعموا خوف الفقر عليهن، وطمع غير الأكفاء فيهن ". [2]

---

(١) المرجع السابق.

(٢) عبد الرب نواب الدين: عمل المرأة وموقف الإسلام منه، الوفاء للطباعة والنشر، المنصورة، ١٤٠٦هـ-١٩٦م، ص٣٢.

ومؤيداً للرأي القائل بأن جمعاً محدوداً من النساء كانت تؤخذ آراؤهن أو يستشرن في بعض أمورهن، أو الأمور العامة في قبائلهن، وهذا هو الرأي الأقرب إلى الصواب، والذي يمكن الأخذ به، يقول: " وقد عرفت بعض النساء العربيات - وهن قلة - بإشراكهن في الرأي والمشورة، وكان لهن دور غير منكور في إخماد الحروب وإذكائها، كما عرفت غير واحدة منهن في مجال الشعر والخطابة.(١) ويختتم الرجل كلامه بتعميم نعتقد في صحته، ولعل الصفحات قد أثبتته، يقول: " على أن العرب كانوا قد احترموا المرأة أكثر من أية أمة ظهرت في تلك العصور ".(٢)

وفي رسالته التي نال بها الدكتوراة قسم "البابطين" حياة المرأة في الجاهلية إلى قسمين، قسم به بعض الإيجابيات، والآخر به بعض السلبيات، وفي جانب الإيجابيات نجد ما يلي حسب ذلك التقسيم:

١- كان العرب كثيري الاهتمام ببناء الأسرة الاجتماعي، لذا فلا غرابة أن نجد من بينهم من كان يبحث عن الزوجة ذات الصفات الحميدة، فينصب اختياره على الزوجة ذات الحسب، والنسب، والنجابة، وسائر مكارم الأخلاق، لما لهذه العناصر من تأثير على الذرية في الصفات الفطرية والمكتسبة.

وليس هذا الاهتمام على نطاق فردي فحسب، وإنما كان رؤساء القوم يوصون أقوامهم بذلك. ولقد كان للمرأة العربية - في جاهليتها - عند بعض القبائل الحرية التامة في اختيار الزوج، ولم يكن للولي أن يجبر موليته في غالب الأحيان على زوج لا ترضاه، ومثال ذلك مادية بنت عفزر، وتماضر بنت عمرو بن الحارث بن الشريد الشاعرة، المشهورة بالخنساء. ومن أبرز الأمثلة التاريخية في ذلك، زواج خديجة بنت خويلد، وهي ذات المال الوفير، بمحمد بن عبد الله بن عبد المطلب، قبل بعثته، ﷺ.(٣)

---

(١) المرجع السابق.

(٢) المرجع السابق، ص ص ٢٣ ـ ٣٢.

(٣) المرجع السابق، ص ص ٢٤ ـ ٢٦.

٢-لقد كانت المرأة العربية في جاهليتها تحظى بنصيب من الميراث، وإن لم يكن هذا هو الغالب في شأنها. وتحدثنا المصادر العربية عن نماذج من هذا النوع من الميراث الذي ترثه المرأة من أبيها أو زوجها، كما حدث من (ذو المجاسد) عامر ابن جشم بن غنم بن حبيب بن كعب بن يشكر، حيث ورث أولاده ماله في الجاهلية للذكر مثل حظ الأنثيين، فوافق حكم الإسلام.(١)

٣-وكانت المرأة العربية في الجاهلية تتمتع بحرية وافرة في التصرف المالي، من بيع وشراء ومتاجرة في مالها، واستئجار الرجال لذلك، مما يستشف منه معرفة ما كانت المرأة تحتله من مكانة في المجتمع العربي الجاهلي، وربما فاقت في ذلك بعض الرجال.

وكانت السيدة خديجة بنت خويلد، رضي الله عنها، خير مثال وشاهد على ذلك لأنها كانت من أثرياء المجتمع القرشي، ومن أصحاب القوافل التجارية في رحلتي الشتاء والصيف اللتين جاء ذكرهما في القرآن الكريم.

وكانت خديجة رضي الله عنها تبيع وتشتري وتستأجر الرجال في مالها وتضاربهم بشيء تدفعه لهم، وقد اختارت ذات يوم رسول الله، ﷺ، قبل زواجها منه، ليكون في إحدى الرحلات التجارية أميناً على تجارتها في الشام برفقة خادمها ميسرة على أن تمنحه ضعف ما تمنح غيره من الرجال، فعاد رسول الله، صلى الله عليه وسلم، بالربح الوفير.(٢) وهناك أمثلة أخرى أوردها الباحث في دراسته ولكننا نكتفي بمثال السيدة خديجة، رضي الله عنها، لأنه دال وفيه الكفاية.

٤-كذلك حظيت المرأة العربية في جاهليتها بالإسهام في مجال الثقافة العامة التي كانت سائدة في عصرها، فكان من النساء من تجيد القراءة والكتابة، وكان منهن

---

(١) المرجع السابق، ص٢٦.

(٢) المرجع السابق، ص ص ٢٧ـ٢٨.

المعلمات، أمثال "الشفاء العدوية" التي كتبت عنها المصادر العربية، وشهد لها رسول الله، صلى الله عيه وسلم، بذلك . . .

وكان فيهن الشاعرات أمثال الخنساء الشاعرة المخضرمة المشهورة، وهند بنت عتبة، والخنساء بنت أبي سلمى، وبنات عبد المطلب صفية وعائلة، وأم حكيم، وأميمة وغيرهن من النساء كثيرات. (١)

كذلك - يقول البابطين - شاركت المرأة العربية في القول النثري، بفصاحة وبيان وقوة في الأسلوب، وقد طرقت كثيراً من أبواب الأدب، ثم إن المرأة العربية لم تقتصر على المشاركة في الشعر والنثر فحسب، بل إنها شاركت كذلك في النقد والتحليل بمعرفة مواطن الحسن والقبح، والقوة والضعف في الأساليب اللغوية من شعر ونثر، يشهد بذلك مشاركتها الفعلية في أسواق العرب في الجاهلية، في عكاظ والمجنة وذى المجاز.

٥-ومجال النساء المجيرات يبين ارتفاع مكانة المرأة في بعض مجتمعات الجزيرة العربية حيث مكنت بعض نساء العرب بعض الهاربين والخائفين من الأعداء من الحصول على الأمان والمنعة، وكانت هذه الحماية والإجارة تحترم من رجال القبيلة، فلا يستطيعون المساس بمن دخل في هذا الجوار. . . ولقد كان هذا النظام عرفاً سائداً في بعض المجتمعات العربية، وله احترام من كل أفراد القبيلة، فلا يخفرون ذمة المرأة المجيرة، ولو أن أحداً فعل ما يسيء إلى هذا الجوار فإن أقاربها يتحركون لرد الإساءة بمثلها، أوحتى أكبر، ولو أدى ذلك إلى سفك الدماء، كما حدث من الحروب التي نشبت بين بني شيبان وبني ربيعة (حرب البسوس). (٢)

---

(١) المرجع السابق، ص ص ٢٩ ـ ٣٠.

(٢) المرجع السابق، ص ص ٣١ ـ ٣٢.

وخلال دراساتنا وقراءاتنا عن الحضارات الأخرى التي سادت كثيراً من مناطق العالم المعروف آنذاك - للحق وللأمانة - لم نمر على حضارة واحدة تمتعت فيها المرأة بمثل هذه المكانة التي تمتعت بها المرأة العربية في الجاهلية في شبه الجزيرة العربية، حتى ولا في عصر النهضة الذي تفتخر به الحضارة الغربية، والذي بنيت هذه الحضارة على أساسه.

ونختتم هذا الجانب، أو هذه الجوانب الإيجابية في حياة المرأة العربية في جاهليتها بما كتبه الشيخ "عون" الذي يبدأ حديثه عن المرأة العربية ومكانتها في قومها بسؤال استنكاري، أو سؤالين يقود بعدهما القارىء إلى الإجابة التي يريد.. يقول:

وهل للمرأة العربية من مكانة في نفوس العرب وقلوبهم..؟

وما ظنك بمن كانت مكانته في التراب، وعيشه في الرغام، يورث كالأنعام ويدس في الثرى إن شاء مولاه..؟ ثم يفند إجابته:

هذه فكرة سائدة، ربما ساعد عليه النظر السطحي في الآية الكريمة: ﴿**وإذا بشر أحدهم بالأنثى ظل وجهه مسوداً وهو كظيم يتوارى من القوم من سوء ما بشر به، أيمسكه على هون أم يدسه في التراب، ألا ساء ما يحكمون**﴾ (النحل/ ٥٨-٥٩).

يقرأ القاريء هذه الاية، فيظن لأول النظر أنها تتحدث عن العرب قاطبة، وعن فعلة فيهم شائعة، فيأخذ منها مكانة المرأة عند العرب.(١)

والحق أن المرأة العربية عند الكثرة الساحقة من العرب لم تكن بمنزلة كريمة عند الرجل فحسب، بل كانت شريكة حياته، وربة بيته، وموضع احترامه، ومراد أنسه.. ومهوى فؤاده.. ترى ذلك جلياً في أشعارهم وأخبارهم وتواريخهم، تذخر

---

(١) كمال أحمد عون: المرأة في الإسلام، مكانتها وجهادها، وحقوقها وواجباتها، وطريق نهضتها، ونهضة الأمة بنهوضها، دار العلوم، الرياض، ١٤٠٣هـ-١٩٨٣م، ص٣٧.

بـه أسفار الأدب وكتب التـاريخ . . . بل إنك لتقـرأ الوفير الغـزيـر من شعر العـرب وقصـائدهم ومطـولاتهم، فقلما تجد قصيـدة تخلـو من وصف المرأة و إطـراء محاسنهـا وخلالها. (١)

وتقرأ تاريخ العرب فترى من ملوكهم وأشرافهم من ينسب لأمه، ويعرف بها، كما عـرف بأبيه، ويمـدح بها فـلا يجد في ذلك غضـاضة عليـه، بل إنـه ليزداد شرفـاً إلى شرف، فهذا عمرو بن المنـذر بن ماء السماء الملقب بعمرو بن هنـد، وأبو المنذر غلب عليه لقب أمه ماء السماء لصفاتها وبهائها، أو لجمال حسبها، وملوك غسان يُمدحون بأمهم مارية ذات القرطين. (٢)

وتكهنت المرأة العـربية، كما تكهن الـرجال، واحتكم الـرجال إليهـا، وتنبأت كما تنبأوا، فإلى جانب مسيلمة، وطليحة الأسدي، كـانت سجاح التي انقاد إليها قومها من بني تميم. . . وتقرأ أيـام العرب وحروبهم ووقائعهم فكثيراً مـا ترى الحرب هاجت بكلمـة منهـا، أو لحادثة مستهـا، كما قـد تهدأ رحـاها عن رأيها ومشـورتها، فحـرب البسوس وقد دامت بين بكر وتغلب أربعين سنة، قـامت انتصافاً لجار امرأة، وحرب ذي قـار، وفيهـا انتصف العـرب من العجم بسبب مقتل النعمان من أجـل رفضـه مصاهرة كسرى.

وتخرج المرأة كثيراً إلى المعارك الحربية، فتأسو جـراح المجروحين، وتنزل الثبات على قلـوب المتهيبين، وتشعل نـار البسـالة والإقـدام في صـدور المستبسلين، كما كـان في موقعة ذي قار، وكما حدث في حرب الفجـار، ولقد كانت أحياناً تجير على القوم، بل يتفق لها أن تكون من قبيلة نسباً، وفي أخرى صهـراً فتكون ملاذ الفريقين في البأساء،

---

(١) المرجع السابق، ص ص ٣٨ـ٣٩.

(٢) المرجع السابق، ص ٤٠.

يلوذون بحماها، ويحتمون بخباها، فيجار من تجير، ويصان من تصون.[1]

وكانت تستشار في زواجها، كهند بنت ربيعة، وكان من النساء من تملك عصمتها، ويكفيها لفراق زوجها أن تشعره بانصرافها وتحويل باب خبائها، وكانت أم عبد المطلب فيمن ملكن عصمتهن. ونبغ من العرب الشاعرات والخطيبات، وكن يردن الأسواق الأدبية كعكاظ، فينشدن الأشعار، ويخطبن على الرجال، ويساجلنهم أفانين القول، وضروب الكلام.[2]

ونصل مع الشيخ عون إلى خلاصة الحديث عن العرب - عامة - في الجاهلية حيث هم: " أمة من الأمم فرضت عليهم معيشتهم وبيئتهم خلائق من الخير والشر، ولم يكونوا جميعاً يكرمون المرأة ويجلونها، كما لم يكونوا جميعاً يحتقرونها ويستهينون بها، وكانت لهم أنظمة في النكاح والطلاق، منها الصالح، ومنها الفاسد، فما كان صالحاً أبقاه الإسلام، وما كان شراً محاه.

وحياة العرب في ظلال الحرية الكاملة التي لا حكومة فيها ولا سلطان غالباً إلا ما تعارفوا عليه وارتضوه، غلبت عليهم الطباع الفطرية التي لا نفاق فيها ولا التواء، والتي قد تصل بأحدهم إلى أبعد مدى من المروءة والكرامة والنجدة، كما قد تنزل بالبعض إلى مهاوى الرذيلة والشراسة، وقلما تجد من بينهم وغدا خسيساً يقبل الضيم ويرضى بالهوان، وكثيراً ما تجد الفاتك المتقحم يركب الشطط ويخوض الغمرات. وأخيراً فهؤلاء هم القوم الذين اختارهم الله عز وجل لحمل رسالته إلى العالم ﴿**والله أعلم حيث يجعل رسالته**﴾. (الأنعام/ ١٢٤).

---

(١) المرجع السابق، ص ص ٤٠ ـ ٤١.

(٢) المرجع السابق، ص٤١.

## ■ ثانياً: كتابات الذين قالوا بسوء أحوال المرأة العربية في الجاهلية.. بصفة عامة:

وسوف نعرض فيما تبقى من هذا الفصل لآراء عدد منهم كي نبين أنهم لم يروا في جاهلية المرأة في شبه الجزيرة العربية إلا كل ماهو سيء، فالصورة عندهم لا وسط فيها، ولا يتضح لهم منها إلا أنها كانت سوداء في مجملها.. !!

فبعد أن يحدثنا "فائز" عن عادة وأد البنات المذمومة، والتي ذكرت في القرآن الكريم، يصل إلى الذين لم يقترفوا هذه الجريمة فيقول عنهم " فأما الذين لا يئدون البنات، ولا يرسلونهن للرعي، فكانت لهم وسائل أخرى لإذاقتها الخسف والبخس (وكأن ذلك كان هدفاً لهم ومطلباً في حدا ذاته.. !!).. كانت إذا تزوجت ومات زوجها، وجاء وليه فألقى عليها ثوبه. فمعنى هذا أنه يمنعها من الناس فلا يتزوجها أحد، فإن أعجبته تزوجها، لا عبرة برغبتها هي، ولا إرادتها.. !! وإن لم تعجبه حبسها حتى تموت فيرثها، أو أن تفتدي نفسها منه بمال في هذه الحالة أو تلك.

وكان بعضهم يطلق المرأة ويشترط عليه ألا تنكح إلا من أراد، إلا أن تفتدي نفسها منه بما كان أعطاها... وكان بعضهم إذا مات الرجل حبسوا زوجته على الصبي فيهم حتى يكبر فيأخذها... وكان الرجل تكون التميمة في حجره يلي أمرها، فيحبسها عن الزواج، رجاء أن تموت امرأته فيتزوجها أو يزوجها من ابنه الصغير، طمعاً في مالها أو جمالها.. (١)

وينقل الكاتب عبارة فيها تعميم كبير عن محمد رشيد رضا من كتابه (حقوق النساء في الإسلام) يقول فيها: لقد كان جميع نساء البشر (!!) مرهقات بظلم

---

(١) أحمد فايز: دستور الأسرة في ظلال القرآن، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط٢، ١٤٠٢هـ ـ ١٩٨٢م، ص١٨.

الـرجـال، في البـدو والحضر، لا فـرق فيـه بين الأميين والمتعلمين، ولا بين الـوثنيين والكتابيين. . ويواصل:

كـانت المرأة تشتري وتبـاع، كـالبهيمـة والمتـاع، وكـانت تكـره على الـزواج وعلى البغاء، وكانت تورث ولا ترث، وكـانت تُملك ولا تملك، وكان أكثر الذين يملكونها يحجـرون عليها التصرف فيما تملكـه بـدون إذن الرجل، وكـانـوا يرون للـزوج الحق في التصرف بما لها من دونها.(١)

أما النـدوي فيقول: " كانت المرأة في المجتمع الجاهلي عرضـة غبن وحيف، تؤكل حقـوقها، وتبتـز أموالها، وتحرم إرثهـا، وتعضل بعد الطـلاق، أو وفاة الـزوج من أن تنكح زوجـاً ترضـاه، وتورث كما يورث المتـاع أو الدابـة. عن ابن عبـاس (رضي الله عنه) قال: كان الـرجل إذا مات أبوه أو حميّه فهو أحق بامـرأته، إن شاء أمسكها، أو يحبسها حتى تفتدى بصداقها، أو تموت فيذهب بمالها.(٢)

وقـال عطـاء بن أبي ربـاح: إن أهل الجاهلية كـانـوا إذا هلك الـرجل فترك امـرأة حبسهـا أهله على الصبـي يكون فيهم، وقـال السـدّى: إن الرجـل في الجاهلية كـان يموت أبوه أو أخوه أو ابنه، فإذا مـات وترك امرأته فإن سبق وارث الميت فألقى عليها ثوبـه فهو أحق بها أن ينكحهـا، أو يُنكحها فيأخذ مهـرها، وإن سبقتـه فذهبت إلى أهلهـا فهي أحق بنفسهـا، وكـانـت المرأة في الجاهليـة يطفف معهـا الكيل، فيتمتع الرجـل بحقوقه، ولا تتمتـع هي بحقوقها، يـؤخذ مـا تؤتى من مهـر، وتمسك ضراراً للاعتداء، وتلاقى من بعلها نشوزاً أو إعراضاً وتترك في بعض الأحيان كالمعلقة، ومن المأكولات مـا هو خالص للذكـور ومحرم على الإناث، وكان يسمح للـرجل أن يتزوج

---

(١) المرجع السابق، ص١٩.

(٢) أبـو الحسن علي الحسني النـدوي: مـاذا خسر العـالم بـانحطـاط المسلمين، دار عمـر بن الخطـاب، الإسكندرية، ط٧، ١٤٠٢هـ-١٩٨٢م، ص٥٩.

من النساء ما يشاء من غير تحديد.[1]

وهكذا نجد أن فايز والندوى لم يريا شيئاً إيجابياً، على الإطلاق، في حياة المرأة في عصر الجاهلية، في شبه جزيرة العرب، فليس لها مشاركات سياسية، كما أنها حرمت من أخص حوقها الاجتماعية، وقد هضمت حقوقهاالاقتصادية، وبطبيعة الحال لا يمكن البحث هنا -إذن- عن مشاركات ثقافية أو أدبية فالتي ضاعت منها الحقوق الأساسية السابقة لا يمكن أن تفكر في أدب، أو في ثقافة من أي نوع.

ونقرأ للمستشار أحمد خيري فنجد الصورة لا بصيص فيها من نور على الإطلاق فالمرأة في الجاهلية -عنده- وصلت إلى مكانة من المهانة لم تصل إليها المرأة في أي مجتمع آخر[2] (!!!)، ولعلنا لازلنا نذكر ما مررنا عليه من حضارات السابقين، يقول: فكان العرب يعتبرونها متاعاً فحسب، وكان الرجل مطلق الحرية في الجمع بين أكثر من زوجة، كما كان له مطلق الحرية في تطليق زوجته، أو زوجاته وقتما شاء، وله أن يرجعها وقتما شاء، أو يطلقها لأجل محدود، ثم يعيدها إليه وله أن يطلقها نهائياً، كما كان الزواج المؤقت، أو زواج المتعة، منتشراً بين عرب الجاهلية، وكذلك زواج الشغار (وهو أن يتبادل الرجلان كل منهما ابنة الآخر، أو أخته أو موليته بدون مهر).

وكانت المرأة توأد وهي طفلة، وتسبى في الحروب، وتحرم من الميراث شأنها شأن الولد الصغير، إذ قانون الإرث لا يورث ولا يعطي حق الميراث إلا من قاتل على ظهور الخيل وحاز الغنائم، وليس ذلك من مهام النساء أو الولدان.

وكانت المرأة تورث هي نفسها مع المال والماشية، وتباع وترهن (لأول مرة نقرأ في أدبيات المرأة في الجاهلية أنها كانت... ترهن..!!) فإذا مات زوجها ورثها ابنه

---

(١) المرجع السابق، ص ص ٥٩ ـ ٦٠.

(٢) أحمد خيرت: مركز المرأة في الإسلام، دار المعارف، الإسكندرية، (بدون تاريخ)، ص١٢.

الأكبر، فإن شاء تـزوجها (وسمى مثل هذا الـزواج بزواج المقت لشدة كراهيـة العرب له) وإن شاء زوجهـا غيره واستولى على مهرها، أو يعضلهـا ويمنعها من الزواج حتى الموت. . . لا اعتبار لكرامتها، ولا حسبـان لشخصيتها ومشيئتها، وإلى زواج المقت أشار القرآن الكريـم، ناهياً عنه: ﴿ **ولا تنكحوا مـانكح آباؤكم من النساء إلا مـا قد سلف، إنه كان فاحشة ومقتاً وساء سبيلاً** ﴾. (النساء/ ٢٢). (١)

ويقول الكـاتب " وأبان لنـا القرآن الكـريم كيف كانت الفتيـات والجواري سلعة يتـاجـر وليهن بعـرضهن على الغير، وتقـديمهن لكل راغب، وإكـراههن على الـزنـا وإجبارهن على البغاء، إذا مـا امتنعن ولذن بأذيال العفاف وأثواب الطهـر، رغبة منه في الكسب طلباً للمال، وبـذلك لم تكن المرأة الحرة في الجاهلية تتمتع بأية حـرية، كما لم يكن لها شخصية قانـونية (وهل كان هناك قانون أصـلاً. . ؟؟!!)، أما المرأة الرقيق فلم تكن لها أيـة شخصية قـانونيـة على الإطـلاق (!!)، وإنما كانت تعتبر جـزءاً من أموال سيدها، وعنصراً من عناصر ثروته. (٢)

ويبين البهي الخولي أن المرأة لم تكن لها مكـانـة تـذكـر في الجاهليـة، وأنها كـانت مهملة من جانـب مجتمع شبه الجزيرة الجاهلي، والرجل يكاد يبرر مـا كان يقع لها من إهمال وضيـاع على أساس أن طبيعـة وظروف المجتمع العـربي في ذلك الوقت، يقـول تحت عنوان " المرأة وتقاليد البداءة ".

حين نقرأ تاريخ الإنسـان، أو قصة حضارته، نـراها تجارب قاسية متـواصلة فيها عنـاصر من البـداءة والجهل، والقلق، والخوف، والأنـانيـة، والـرغبـة في العـدوان والعلو، تجارب إذا انتهى فيهـا من مصارعـة الوحـوش، ومنازلة السبـاع، فرغ لمنـازلة أخيـه الإنسـان، وفتح لـذلك صفحـة. . بل صفحـات قـاسيـة داميـة من الحروب

(١) المرجع السابق، ص١٣.

(٢) المرجع السابق، ص١٤.

والغارات والسلب والغصب والنهب، واسترقاق الرقيق، وسبى الذراري، ليكونوا في خدمة الغالب، خدمة بيته وأرضه، وسائمته، وسائر عمله.[1]

ونصل إلى بيت القصيد، وهو محاولة تبرير تصرفات أفراد المجتمع العربي في العصر الجاهلي: " ولسنا بصدد استيفاء ملامح هذه الأطوار البعيدة، وما كان فيها من تجارب قاسية، ولكنا نتساءل: أيلام الإنسان إذا هو رتب حياته. يوم ذاك. وأقام أوضاعه الاجتماعية على ما يلائم تلك الظروف، ويقتضيه ماهو مفروض من احتمالات الغزو، أو مفاجأة غارات السلب والنهب والسبى والاسترقاق.. ؟

إيلام مثلاً إذا خرج لغارة أو مدافعة عدو، أن يعفى منها الحامل والمرضع ومن في حكمهن من ضعيفات النساء.. ؟ أو يلام إذا اجتمع من شهد المعركة لتقسيم الأسلاب والغنائم دون استدعاء النساء.. ؟ وهل يلام إذا جمع المقاتلين من أبناء القبيلة ليتداولوا تدبير ما يريدون من غزو، أو إحباط ما يتوقعون من غارة دون أن يشرك المرأة في هذا التدبير.. ؟[2] وكلام الكاتب واضح، وهو يبين الحالة السيئة التي كانت تعيشها المرأة في العص الجاهلي، وإن كان يذهب خطوة أبعد من مجرد التبيان والتوضيح، وهي خطوة تبرير ما كان يحدث، ونسبته إلى الظروف التي كان يعيشها المجتمع الجاهلي في ذلك الوقت.

ونقرأ لكبير علماء تركستان مبشر الطرزي الحسيني، حول الموضوع ذاته، وفي نفس الاتجاه، يقول سماحته بعد أن تحدث عن مكانة المرأة في بلاد اليونان والرومان وعند الفرس وعند اليهود، يقول بعد أن وصل إلى العرب: " أما العرب في عهد الجاهلية فإنهم كانوا يعتبرون المرأة جزءً من الثروة، ولهذا فإن الأرملة كانت تعد ميراثاً لابن المورث، وكانت هذه العادة الظالمة جارية بصفة خاصة بين قبائل اليمن الذين كانوا

(١) البهى الخولي: مرجع سابق، ص٩.
(٢) المرجع السابق.

يعيشون مع الإسرائيليين والصائبيين - وكان تعدد الزوجات شائعاً في جميع قبائل العرب، بدون شرط أو تحديد حد، تبعاً لهوى الرجال.[1]

ونصل للخلاصة عنده والتي يلخصها فيما يلي: " وبالإجمال فإن مقام المرأة في المجتمع العربي قبل الإسلام كان نازلاً (!!) إلى حد ينكره الضمير الإنساني، وفي هذا قال عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، " والله إنا كنا في الجاهلية لا نعد النساء شيئاً، حتى أنزل الله فيهن ما أنزل " . فقد أفاد بهذا القول الوجيز ما كانت المرأة عليه في العهد الجاهلي من انحطاط وذلة، ثم ما صارت إليه من رفعة وعزة في ظل تعاليم الإسلام ومبادئه الحكيمة " .[2]

ويضم "التليدي" العرب إلى بقية الأمم الأخرى التي امتهنت المرأة وأذلتها، وحقرتها، فلم تكن المرأة -في رأيه- في عصر الجاهلية أقل حضارةً وسقوطاً منها في باقي العصور، فقد كانوا يئدونها ويقبرونها، وهي حية، فور ولادتها، أو في طفولتها، وإذا نجت المرأة من هذا الوأد عاشت كسقط البيت ومتاعه، تورث كباقي التركة، ولا حق لها في إرث أقاربها، وللزوج الحق في التزوج بمن شاء من النساء بلا حد ولا قيد، وقد تعضل هي وتمنع من الزواج، إذا مات عنها زوجها، أو طلقها، فلا تتزوج أبداً . . . وهكذا - معمماً وملخصاً - أجمعت الأمم على امتهان المرأة واحتقارها وسلبها حقوقها، منذ حقب طويلة في التاريخ . . . !![3]

أما الشيخ "عرفة" فيقول بأن المرأة كانت مهضومة -في كثير من حقوقها- عند العرب قبل الإسلام، وأنهم كانوا يتشاءمون منها، ومن مقدمها . . أي مولدها،

---

(١) مبشر الطرازي الحسيني: المرأة وحقوقها في الإسلام، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٠٥هـ-١٩٤م، ص١٢.

(٢) المرجع السابق.

(٣) عبد الله التليدي: المرأة المتبرجة وأثرها السيئ في الأمة، دار ابن حزم، ص١١.

وكان الشخص الذي تولد له أنثى يعتبر ذلك بلاء وشراً عليه وعلى أسرته. وقد وصف الله تعالى حالهم هذه أدق وصف، حيث قال تعالى: ﴿**وإذا بشر أحدهم بالأنثى ظل وجهه مسوداً وهو كظيم، يتوارى من القوم من سوء ما بشر به، أيمسكه عى هون، أم يدسّه في التراب، ألا ساء ما يحكمون**﴾. (النحل٥٨-٥٩).

وقد أدى كرههم وبغضهم هذا لها أن كان كثير منهم يحاول التخلص منها بالقضاء عليها، إذ لم يكن عندهم عرف أو قانون يحول بين الرجل وقتله ابنته متى شاء، بل إن العرف عندهم يجعل ذلك من حقه، فكانت بعض القبائل كربيعة وكندة وتميم تئد بناتها خوف أن يجرهن الفقر إلى العار والفضيحة، أو يسبيها العدو، فتكون سبة له ولقبيلته وقومه إلى الأبد، بل إن بعض العلماء ذهب إلى أن الوأد كان في عامة قبائل العرب (!) لكنه يستعمله بعض دون بعض.(١)

ويحدثنا الشيخ عن وضع المرأة الجاهلية الذي تدنى في شبه الجزيرة العربية إلى حدود بعيدة، حيث كانت تورث مع بقية المتاع والمال، وبطبيعة الحال كانت هي نفسها ممنوعة من أن ترث أي شيء.. لماذا؟ " لأنهم كانوا يرون أن المال الذي ترثه يذهب إلى الغرباء الذين تزوجت إليهم، وكثيراً ما يكونون من أعدائهم، وهم حريصون على يبقى في أسرهم، ولأن المال يؤول إلى من لا تنتفع القبيلة بهم في القتال والحياة، ومن أقوالهم في ذلك: لا يرثنا إلا من يحمل السيف، ويحمي البيضة.. "(٢)

ولم يكن لها على زوجها حقوق محددة تطالبه بالوفاء بها، وليس للطلاق عدد محدود، ولا لتعدد الزوجات حد معين، ولم يكن لها حق في اختيار زوجها، إلا ما كان من بعض رؤساء العرب وأشرافهم، فقد كانوا يستشيرون بناتهم في أمر الزواج.

ويتحفظ المؤلف عندما يكرم العرب المرأة حيث يفعلون ذلك، إن فعلوه، لا عن

---

(١) محمد بن عبد الله عرفة: حقوق المرأة في الإسلام، مطبعة المدني، القاهرة، (د.ت)، ص٣٢.
(٢) للمرجع السابق، ص ص ٣٢ـ٣٣.

اعتراف بحقوق مشروعة ثابتة لا يجوز التفريط فيها، وإنما هو يكرمها كما يكرم فرساً يحبها(!!)، أو شيئاً آخر يملكه، حل من نفسه محل المحبة والرضى والقبول..!!(١)

وتلخص لنا إحدى بنات جنسها وضع المرأة في الجاهلية بأنه كان عاراً، وقد تعود العربي الجاهلي أن يتخلص منه ومن عبئه عليه، وكان ذلك - في رأي الكاتبة - لضعف بنية المرأة، وكذلك لقلة دخل الرجل من المال.(٢)

ويتوجه الشيخ محمد عزه دروزة في التفسير وجهة مؤداها أن بعض الآيات القرآنية التي خاطبت الإنسان في شبه الجزيرة العربية كانت تتوجه للرجل، ولا تتوجه للمرأة ويبين أن ذلك كان من باب الإقرار لأمر واقع بالفعل، ثم من بعد ذلك عدّل القرآن سلوكيات العرب من ناحية المرأة، نقرأ:

" كان العربي قبل الإسلام صاحب المركز الممتاز في الأسرة والمجتمع، فهو قوام الأسرة وربها والمسؤول عن حياتها ورزقها وشؤونها وسلامتها. وهو المكلف بالحرب، والمطالب بالثأر والمغرم، وهو المخاطب في المسؤوليات والتبعات الاجتماعية المتنوعة. وكانت المرأة من حيث العموم تابعة للرجل، ومنسوبة إليه، ومسيرة بأمره. وكان هو الذي يمثلها في مصالحها الخاصة. ولقد جاء في سورة آل عمران آية عبر فيها عن الرجال بكلمة الناس، كأنما هم الدنيا، وذكر فيها أن النساء والبنين والأموال والمتع الأخرى إنما هي مطاليبه ورغباته ومطمح أنظاره وهي: ﴿**زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسوّمة والأنعام والحرث ذلك متاع الحياة الدنيا**﴾. (آل عمران/ ١٤). وإذا دققنا في الآيات القرآنية

---

(١) المرجع السابق، ص٣٤.

(٢) ابتسام عبد الرحمن حلواني: عمل المرأة السعودية ومشكلات على طريق العطاء، رسالة دكتوراه، غير منشورة، مقدمة إلى جامعة كليرمونت بالولايات المتحدة الأمريكية، ١٤٠٨هـ-١٩٨٧م، ص٢١.

التي فيها دعوة أوخطاب أو جدل أو مناظرة أو إنذار أو وعد أو وعيد، أو التي فيها حكاية عن موقف الكفار وأقوالهم وما كان بينهم وبين المسلمين من شؤون وأحداث وحروب، أو التي فيها قصص الأمم الغابرة وأنبيائها و بل والتي فيها خطاب للمسلمين في التشريع والتكليف، أو التنبيه والتحذير، أو الدعوة إلى الجهاد بالمال والنفس، أو حكاية لما قاموا وفعلوا، ويقولون ويفعلون، وجدناها قد صيغت في الأعم الأغلب بصيغة المذكر مفرداً وجمعاً، ووجدنا أكثرها إنما قصد به في الحقيقة الرجال والحكاية عنهم، ولآيات كثيرة جداً تغنى كثرتها عن التمثيل، وهي مبثوثة في كثير من السور بل في معظم السور.(١)

والمتبادر أن هذا الأسلوب هو ترديد لما كان واقعاً مألوفاً في المجتمع الذي نزل فيه القرآن، وخوطب به أهله بلسانهم لأول مرة. وما احتواه القرآن والسنة من التشريعات النسائية والعائلية في الإسلام، إنما توخى فيها تعديل ما كان فيه من حيف وضر وإرهاق ونكران. ومع ذلك فإن فيها في الوقت نفسه تقريراً ضمنياً أو صريحاً لما كان عليه مركز المرأة العربية قبل الإسلام.(٢)

وبعد.

فقد عرضنا في هذا الفصل لوجهتي نظر تعرض أصحابها لحال المرأة في شبه الجزيرة العربية، فهناك من رأوا أن سوء أحوال المرأة، وانحطاط مكانتها في الحضارات السابقة على الإسلام، بل والمعاصرة، وكذا بعض الحضارات التي تلته كان هناك مثلها في شبه جزيرة العرب، وقد فصلنا في عرض آرائهم التي لم تر في معظمها، شيئاً إيجابياً في حياة المرأة في شبه الجزيرة العربية.

---

(١) محمد عزة دروزة: المرأة في القرآن والسنة، منشورات المكتبة العصرية للطباعة والنشر، صيدا ـ بيروت، (بدون تاريخ) ص ص ٨ ـ ٩.

(٢) المرجع السابق، ص٥٩.

وكان هناك طائفة من الباحثين الذين تعمقوا الموضوع، ورأوا أن الصورة - في شبه جزيرة العرب - لم تكن بالسوء الذي كانت عليه خارجها، وقد استدلوا على ذلك بوضع المرأة في الجزيرة، في بعض فترات التاريخ السابقة على الإسلام، والتي وصلت فيها المرأة إلى رئاسة الدولة، وقيادة المجتمع، كما أنهم رأوا إسهامات للمرأة ما كانت موجودة في الحضارات السابقة على الإسلام، إسهامات في مجالات كثيرة، كالاقتصاد والثقافة والفنون المختلفة، من شعر ونثر، بالإضافة إلى مكانة المرأة ونفوذها في مجال الإجارة، وقد رأينا أن نعرض للجانبين، حرصاً على الموضوعية، دون تحيز لجانب دون آخر، وللقارئ أن يعمل فكره فيما قرأ، وأن يقارن بين أقوام خارج الجزيرة، ومجتمع اختاره الله، عز وجل، ليبعث فيه رسوله، ويختار من بينه صحابة للرسول، صلى الله عليه وسلم، لحمل الرسالة إلى العالمين. . كل العالمين.